قوة الإسلام العالمية

obeikandl.com

obeikandl.com

قوة الإسلام العالمية

تمتد جذور اتصال الإسلام بأوربا المسيحية فى أعماق التاريخ ...حتى القرن الأول الهجرى (السابع الميلادى) ، أى أن عمرها الآن يربو على أربعة عشر قرناً من الزمن ، ومع ذلك لم يزل الصراع متأججاً بينهما ، وإن اختلفت أسلحته ، وتباينت أساليبه ، فهو أطول صراع دينى فى التاريخ ، دينى بكل معنى الكلمة ، وإن أطلق عليه البعض صراعاً سياسياً ، أو اجتماعياً ، أو اقتصادياً ، لأن الكنيسة ، وإن تنازلت مكرهة عن التوجيه المباشر فى شئون الدولة العلمانية فى أوربا ، فإن تأثيرها لم يزل واضحاً فى جميع مجالات الحياة فيها ؛ إذ كان من الممكن أن يهدأ الصراع السياسي ، لو تحول الشرق الإسلامى إلى المسيحية ، والدليل على ذلك ما حدث فى ألمانيا فى القرن العشرين ، فقد شنت حربين عالميتين فى مدى أقل من نصف قرن على دول الغرب المسيحية ، ومع ذلك فقد انصب غضب أعدائها فى الحرب على أفراد معدودين فقط — وهم الذين شنوا الحرب بحكم موقعهم فى مراكز السلطة — واقتص منهم ، ثم ساعدوا — أى الطرف الآخر فى الحرب — الشعب الألمانى المسيحي على النهوض من كبوته ، لإصلاح ما دمرته الحرب . ولو فعل الشرق مثل ما فعلت ألمانيا لأبيدت شعوبه إبادة كاملة ، لأنها تدين بدين غير المسيحية ، تدين بذلك الدين الذى غرست الكنيسة الأوربية فى أتباعها غريزة الكره له ، بما نشرت عنه من معلومات خاطئة ، وبما صورته لهم بصورة تنفرهم منه ، وتدفعهم إلى معاداته ، والعمل على محاربته ، وملاحقة أتباعه أينما كانوا ، وحيثما وجدوا ، تدفعهم إلى محاربتهم اقتصادياً ، لأنهم لو انتعشوا فى هذا المجال لأصبحوا خطراً على أوربا كما يعتقدون .

هكذا قالت لهم الكنيسة ، وعلمتهم إياه مدارسهم المسيحية ، وأكدته لهم مؤلفات كُتّابهم ، لتدفعهم إلى بذل الجهود على كل المستويات — فى مجال الثقافة ، والإعلام ، وبين أوساط السلطة التشريعية ، والتنفيذية — لتغيير النظم القائمة على أساس من الشريعة الإسلامية ، تمهيداً لتحويل المجتمع إلى اعتناق وتطبيق النظم الأوربية ، لأنهم لو لم يفعلوا ذلك

– هكذا لقنتهم الكنيسة الأوربية – لبقى اتصال هذه الشعوب بالإسلام قوياً ، وربما ازدادت قوته يوماً بعد يوم فيصبحون مصدر تهديد للعالم الغربى .

وما قلق العالم الغربى لما يحدث فى بعض الأقطار الإسلامية ، إلا انعكاس لما رسخ فى أذهانهم – عبر الأجيال الماضية – من الفزع والرعب من عودة الحياة إلى الإسلام ، كنظام شامل للفرد والمجتمع ، نتيجة لدعاية الكنيسة عن الإسلام وأهله .

فالصراع السياسى ، والعسكرى ، والاقتصادى ، والاجتماعى يقوم على أساس دينى ، ولهذا اتجه المفكرون فى الغرب إلى دراسة الدين الإسلامى والكتابة عنه ، غير أن الحديث عن الإسلام فى الأوساط الفكرية فى الغرب سار فى قنوات متعددة ، خرج من منبع واحد ، هو تعصب الكنيسة وحقدها على الإسلام ، ويبغى هدفاً واحداً ، ألا وهو القضاء على هذا الدين ، وإن لم يمكن ذلك ، فلا أقل من السيطرة على أتباعه ، ومحاولة إضعاف الصلة بينهم وبين الإسلام .

وبين المنبع والهدف اختلفت الأساليب ، وتعددت المناهج :

فآباء الكنيسة اتخذوا الهجوم المباشر أسلوباً ، وتشويه الحقائق منهجاً ، فجاءت كتاباتهم عن الإسلام مخالفة للواقع ، طافحة بمظاهر التعصب والتحامل ، مما جعل الإسلام يبدو للأوربيين – حين كانت الكنيسة هى المصدر الوحيد للمعرفة – مخيفاً ، والمسلمين وحوشاً .

أما المستشرقون (وهم القائمون على كرسي الدراسات الاستشراقية فى الجامعات ، التى كان الهدف من إنشائها خدمة المستعمر ، لأنهم كانوا – وما زالوا – مستشارين لحكوماتهم فى شئون الدول الإسلامية) فقد ادعوا أنهم ينهجون المنهج العلمى الحديث فى الدراسات الإسلامية ؛ لكن بحوثهم دارت فى دهاليز التعصب ضد الإسلام ، لأن اللاوعى عندهم مليء بما غرسته الكنيسة فى عقول أسلافهم ، ومن الإنصاف القول بأن الطابع العام أقل حدة مما كتبه آباء الكنيسة ، وبأنه ظهر بينهم أفراد التزموا الحياد العلمى فى بعض جوانب بحوثهم ، لأنه لا يوجد عالم يستطيع أن يتخلص كلية من آثار مجتمعه الثقافى .

ويلى المستشرقين كتابُ القصص والروايات ، وهؤلاء يعتمدون فى تصوير أبطالهم ، وشخصيات رواياتهم على ما كتبه الرحالة وآباء الكنيسة والمستشرقون المتعصبون . أما المصدر الأول – وهم الرحالة – فقد غلب عليهم خيال جامح ، وخاصة فى القرون الوسطى ، ولا ننسى رائدهم " ماركو بولو " (1254 – 1323) الذى دون رحلته إلى الشرق فى جزأين ، حشاهما بغرائب التراث ، والأخلاق ، والأديان . ولا يقل عنهما ما جاء فى رحلة " شاباى " من ضلالات لا يصدقها عقل بشر ، مثل قوله : (إن للشرقيين ثمانية أنامل ورأسين) .

والمصدران الأخيران لم يقدما لكتاب القصص سوى صورة مهلهلة ، ممزقة عن الإسلام ، فخرجت القصص والروايات بلوحة عن الإسلام والمسلمين ، طُمِسَت معالمها ، وشُوِّهَت جوانب الجمال فيها ، ومُحِيَت معالم الإنسانية من خطوطها وألوانها .

فإذا هيأت الظروف لواحد منهم الاطلاع على مصادر إسلامية ، موثوق بها ، ظهر انعكاسها باهتاً فى رواياته وقصصه ، لأن هذا التأثير العابر ، لا يمكن أن يمحو أثراً رسخ فى ذهنه منذ طفولته ، وواكبه فى مراحل عمره ، ولازمه فى حله وترحله ؛ إذ معرفته عن الإسلام فى طفولته من أبويه – ومصدر ثقافتهما عن الإسلام فى الغالب الأعم من كتابات آباء الكنيسة والمستشرقين – ، وفى المدرسة من مدرس لم يكن أوفر حظاً منه فى استقاء معلوماته عن الإسلام ، وفى المجتمع من الصورة المشوهة التى رسمتها عدة مصادر ، تساندت كلها فى تشويه صورة الإسلام للمجتمع الأوربى ، كى تحول بينه وبين التحول إلى الإسلام .

وهناك فريق آخر ، كتب عن الإسلام ، ولم يكن الدافع له موقعه من الكنيسة ، أو عمله مستشرقاً ، كما أنه ليس من هواة كتابة القصص المليء بالأحداث التى تستهوى قطاعاً كبيراً من القراء – كقصص كارل ماى – ، ولكنه كتب عن الإسلام ، إشباعاً لرغبة البحث عنده ، وتعبيراً عن غريزة الكتابة لديه ، ليسهم فى بناء حضارة أمته ، وليصحح بعض المفاهيم الشائعة بين بنى قومه – من وجهة نظره – حتى يستقيم بناء المجتمع ؛ ويشتد أزر الأمة ، وتتجنب الزلل فى تقدمها على طريق الزمن .

ويضم هذا الفريق فلاسفة ، واجتماعيين ، وسياسيين ، واقتصاديين ، ورجال إعلام . وقد تناول كثير منهم الإسلام فى بحوثه ، بعضهم عالجه كجزئية ضمن عديد من قضايا بحثه ، بينما احتل صفحات كثير ة عند الآخرين ، غير أن عدداً من الباحثين المعاصرين كتب مؤلفات ضخمة – وصل بعضها إلى عدة مجلدات – عن الإسلام ، تختلف فى طابعها ومنهجها عما كتبه المستشرقون وآباء الكنيسة فى العصر الوسيط ؛ إذ يغلب عليها رغبة المؤلف فى التزام الموضوعية ، والبعد عن مهاترات آباء الكنيسة ، وترهات المستشرقين ، لكن ظروفه الاجتماعية والثقافية منعت تحقيق هذا الهدف على الوجه الأكمل ، فهو ، وإن تشرب بروح النهضة الحديثة ذات الطابع العلمانى ، إلا أنه مشدود بجذور ثقافية ضاربة فى أعماق التاريخ حتى الحروب الصليبية – إن لم تكن أقدم من ذلك – ، وكُبِّل بسلاسل إعلامية – سواء كانت إذاعية ، أو صحفية ، أو نشرات دورية ، أو كتب ثقافية ، وتخصصية – تحجب عنه الجانب الايجابى فى الإسلام ، وتصوره بصورة تنفره منه ، وتبعده عنه ، إذا ما اقترب يوما منه بفعل الموجات اللبرالية التى اجتاحت أوربا فى العصر الحديث .

وسنعرض هنا نموذجين من الكتابات الأوربية ، يوضحان صورة الإسلام فى عيون الأوربيين .

إن من أدق ما كتبه الأوربيون ، وأكثرهم تصويراً لعناصر قوة الإسلام التى تمكن المسلمين من بناء قوة عالمية ، كتاب : " **الإسلام قوة الغد العالمية ؟**" ، فقد استهدف مؤلفه تبصير بنى جنسه بتلك العناصر ، التى تساعد المسلمين على بناء قوة عالمية ، كى يخططوا لإضعافها إن أرادوا حماية أنفسهم من الإسلام ، فهو يرى أن المسلمين يملكون من مصادر القوة ما لا يملكه أتباع دين آخر على وجه الأرض ، فهم :

أولا : " يسكنون منطقة جغرافية تتحكم فى العالم كله ، فيقول فى هذا الصدد : إن أهمية المنطقة الإسلامية فى نظام التجارة العالمية فى ذلك الوقت (أى قبل الإسلام) كانت واضحة وحقيقة واقعة ، فحكامها كانوا يستطيعون التحكم فى الأسعار عن طريق رفع رسوم المرور والجمارك ، بل كان فى

مقدورهم قطع الطريق كلية ، إذا بدا لهم أن ذلك فيه فائدة لهم ، أى رغبوا فيه اعتماداً على أى سبب . ومن هنا ظهرت الأطماع فى السيطرة على هذه المنطقة ....: ولم يتغير شيء من هذا بعد دخول الإسلام ، فقد أصبح قدح الزند فى المجالات السياسية والتجارية فى الشرق الأدنى فى يد الدولة الإسلامية الجديدة ، التى مدت سلطانها على المنطقة جغرافياً وثقافياً . " [32]

وكانت السيطرة على المنطقة من الأسباب الرئيسة للحملات الصليبية :

" فقد حمل الصليبيون معهم فكرة مدروسة ، مفادها : أن أهمية السيطرة على منطقة غرب آسيا لا يمكن أن تُقَدَّر ؛ إذ هى نقطة الاتصال بين الغرب والشرق الأقصى ، وثبتت صحة هذه الفكرة لحكام تلك المنطقة منذ قرون ، وما زالت حتى اليوم ." [33]

ثانياً : لديهم خصوبة بشرية ، تمكنهم من التفوق على غيرهم ، إن هم أحسنوا إعدادها وتوجيهها :

" تشير ظاهرة السكان فى أقطار الشرق الإسلامى إلى احتمال وقوع هزة فى ميزان القوى بين الشرق والغرب ، فقد دلت الدراسات على أن لدى سكان هذه المنطقة خصوبة بشرية ، تفوق نسبتها ما لدى الشعوب الأوربية ، وسوف تمكن الزيادة فى الإنتاج البشرى الشرق على نقل السلطة فى مدة لا تتجاوز بضعة عقود ... وسوف ينجح فى ذلك نجاحاً لا نرى من أبعاده اليوم إلا النذر اليسير ...."

ثم بعد أن يعرض مؤثر زيادة السكان فى مصر على ذلك يقول :

" وسيصبح فى مصر فى مدى 968 سنة – أى أقل من ألف عام – أمة تعدادها 973 ملياراً من البشر ، أى أنها سوف تنمو بشرياً إلى درجة لا تمكنها فقط من استعمار الكرة الأرضية ، بل من استعمار أعداد من الكواكب السيارة الأخرى ." [34]

---

[32]) باول شمتز : الإسلام قوة الغد العالمية صـ 34 ترجمة : محمد شامة .

[33]) المصدر السابق صـ 35-36

[34]) المصدر السابق صـ 197

ثالثاً : يملكون من الثروة والمواد الخام ما يستطيعون به بناء قوة صناعية ، تضارع أرقى الصناعات العالمية – إن لم تتفوق عليها – ، وسوف تزداد هذه الثروات فى وقت تقل فيه فى البلاد الأخرى ، مما يجعلهم يتحكمون فى توجيه الصناعة فى العالم.....

"يوم يقل الإنتاج الغزير لهذا البترول ، الذى يغزو أسواق العالم اليوم ، سيحتل البترول الإسلامى – حسب التقديرات المتحفظة جداً – بعد اكتشاف باقى حقول الحزام البترولى فى غرب آسيا مركزاً دولياً هاماً ، وسيصل إنتاجه رقماً لم يعرف بعد ، ولا يستطيع الخبراء التكهن به ، لأنه يفوق كل تقدير . يجب ألا نغفل عن دلالة هذا التغيير وتأثيره اقتصادياً فى مركز العالم الإسلامى على مسرح التبادل التجارى العالمى ." [35]

رابعاً : الإسلام ، ذلك الدين ، الذى له قوة سحرية على تجميع الأجناس البشرية المختلفة تحت راية واحدة ، بعد إزالة الشعور بالتفرقة العنصرية من نفوسهم ، وله من الطاقة الروحية ما يدفع المؤمن على الدفاع عن أرضه وثرواته بكل ما يملك ، مسترخصاً فى سبيل ذلك كل شيء ، حتى روحه ؛ يحرص على التضحية بها فداءً لأوطان الإسلام :

أى قوة وجدانية بعثت هذه الإرادة اليوم فى الشرق ؟

قوة الوحدة الفكرية للإسلام ، ووجود الإحساس الحى للدين الإسلامى ، فهم ينتصر فى كل مكان يتزل فيه الميدان مع الأيديولوجيات الأخرى .

إن اتجاه المسلمين نحو مكة – وطن الإسلام – عامل من أهم العوامل فى تقوية وحث الاتجاه الداخلى بين المسلمين ، وأسلوب يضفى على جميع نظم الحياة فى المجتمع الإسلامى جامع الوحدة وصفة التماسك . [36]

---

[35]) المصدرالسابق 218

[36]) المصدر السابق 94

" كتب أغا خان زعيم المسلمين فى الهند ، وصديق انجلترا ، فى عام 1924 م يقول :

إن برنامج التربية والتعليم الذى وضعه الإنجليز للهند ، ويقومون على تنفيذه ، يحمل فى طياته نزعة وطنية ، ولهذا نمت عند المسلمين نزعة إقليمية ، غير أنهم لم ينطووا على أنفسهم ، ولم تعزلهم عن إخوانهم المسلمين جبال الهمالايا ، ولا امتداد المحيط الهندى ، فبينهم وبين إخوانهم المسلمين فى البلاد الأخرى وحدة لا تقبل الانفصال ، وحدة تعلو كل الخلافات المذهبية ، وتجمع كل الأوطان تحت لوائها ، أسست بين المؤمنين على قواعد دينية راسخة ، فلم يجمع المؤمنين تعاليم القرآن فقط ، بل أسهم أيضا فى وحدتهم تاريخ وفلسفة العرب ، والشعر الفارسى ، والمصرى ، والمغربى ، والأسبانى . والمسلمون الذين لا يشبعون من هذا المنبع هم : الأتراك ، والعرب ، والفرس ، والهنود ، سواء اتصلوا بالغرب ، وبالثقافة الغربية أم لا . كل هؤلاء مرتبطون بوحدة الفكر والشعور والانطباعات " [37]

وبعد فيرى المؤلف أن :

- الاطراد المستمر فى زيادة السكان بين المسلمين ،
- والثروة الوفيرة التى يكشف عنها البحث كل يوم فى أراضيهم ،
- والمركز الاستراتيجى الفريد فى المواصلات العالمية لبلادهم .

كل هذا يمثل القوة ذات الأثر البعيد للمسلمين فى غدهم ، **إن هم أحسنوا استخدامها ، وبقوا متمسكين بإسلامهم ، وتقدموا فى العلم والتكنولوجيا .**

ويعتقد أن الإسلام هو الرباط القوى الذى يجمع المسلمين فى وجه الاستعمار ، أيًّا كان مظهره .

ويرى فى وضوح : أنه من الممكن للمسلمين أن يتقدموا فى العلم والتكنولوجيا ، كما تقدم الأوربيون ، وهم عندئذ ليسوا فى حاجة إلى رباط يجمع شملهم سوى الإسلام ، وهو قائم فعلاً ، لم يفقدوه بعد .

---

[37]) المصدر السابق صـ 95

ويختم المؤلف كتابه بقوله :

" إن انتفاضة العالم الإسلامى صوت نذير لأوربا ، وهتاف يجوب آفاقها ، يدعو إلى التجمع والتساند الأوربى لمواجهة هذا العملاق ، الذى بدأ يصحو ، وينفض النوم عن جفنيه .

هل يسمعه أحد ؟

ألا من مجيب ؟

أما النموذج الثانى الذى اخترناه من كتابات الأوربيين ، فهو كتاب : " الإسلام قوة عالمية متحركة " [38] لمؤلفه : " هربرت جوتشالك " ، والمؤلف ليس من آباء الكنيسة ، ولا من المستشرقين ، بل هو كاتب وصحفى ، قدمه الناشر بقوله " ولد " هربرت جوتشالك " فى 1919/6/9 ، ونشأ فى جنوب بروسيا . بدأ حياته الجامعية بدراسة الطب ، واستمر فيها حتى وصل إلى ما قبل الامتحان النهائى ، حيث استدعى للخدمة الإجبارية فى أثناء الحرب العالمية . أصيب على الجبهة الشرقية ، فترك الطب ، واتجه إلى دراسة الفلسفة وعلم النفس والتاريخ والأدب لمدة سبع سنوات ، جاب فيها دول البلقان ، وكتب كثيراً من المقالات والكتب ، ومن أشهرها كتاب : " الإسلام قوة عالمية متحركة " ، وهو يعمل الآن (فى عام 1962م) — وهو العام الذى ظهر فيه الكتاب — فى إحدى دور النشر فى ألمانيا الغربية .

فإذا لم يكن قسيساً ، يدفعه مركزه فى الكنيسة إلى تشويه صورة الإسلام حتى لا تفقد الكنيسة أتباعها ، واحداً بعد الآخر ، نتيجة تحولهم إلى الإسلام !

وإذا لم يكن مستشرقاً يبدو ظاهر عمله أبحاثاً أكاديمية ، وباطنه أسلوباً من أساليب تمكين سيطرة العالم الغربى على الشرق الإسلامى !

فما الدافع له للكتابة عن الإسلام إذن ؟

---

[38]) نشر عرضه ونقده : محمد شامة ،تحت عنوان : الإسلام فى الفكر الأوربى .

يجيب الناشر عن هذا فى نشرته عن الكتاب ، فيقول :

" كيف يكون ممكناً أن تقوم اليوم هيئات تبشيرية فى قلب العالم الغربى المسيحي ، تدعو إلى الإسلام ؟ هل توجد سفينة نوح ؟ (يقصد بذلك أن الإسلام ينقذ الغرب من فراغه الدينى ، كما أنقذت سفينة نوح من آمن بدعوته من الغرق) ، وما هى المبادئ الروحية والفكرية التى فقدها هذه العقيدة ؟

ظهر الإسلام لأول مرة كقوة عالمية متحركة فى القرن السابع الميلادى ، ووصل إلى أبواب فيينا مرتين : الأولى : فى الحروب الصليبية ، والثانية : فى عام 1683م ، ولكن الأوربيين تمكنوا فى اللحظة الأخيرة من صده ، ومنعوا تحويل القارة كلها – حتى بحر الشمال والبحر البلطيقى – إلى الإسلام ، واليوم لا يحمل الإسلام السيف ، ولكن الدعوة إليه تزداد كل يوم ، وتتطور أشكالها . ويحتم علينا الانتشار العالمى للإسلام أن نتعمق فى دراسة تاريخ الشرق الدينى ، وفلسفته ، وتصوفه ، وحضارته ، وفنه "

ينطلق المؤلف من هذه القاعدة ، فيصور لنا طبيعة الحياة فى الجزيرة العربية قبل الإسلام ، ثم يتعرض لحياة النبى ﷺ ، وللتعاليم التى بلغها لأتباعه ، كما يتتبع المؤلف بالبحث الانتفاضة السياسية للشعوب الإسلامية حتى منتصف القرن العشرين ، ويلقى الضوء على تاريخ الحضارة ، والفن ، والفلسفة الإسلامية ، ثم تناول بالبحث : مدى قدرة الإسلام على اقتلاع جذور المشكلة التى تهدد الإنسان ، روحياً ، وفكرياً ، وتقديمه للإنسانية الضائعة نظاماً أخلاقياً ينقذها من الانهيار الأخلاقى ... ومدى التقاء الإسلام الشرقى للظروف الغربية المهددة . ويفهم من هذا أن الدافع إلى تأليف هذا الكتاب هو ظهور الدعاة إلى الإسلام ، وإنشاء المراكز الإسلامية فى الغرب ، وخوف المتعصبين للمسيحية من انتشار الإسلام هناك ، خاصة وأن المجتمعات الغربية تعانى من أزمة دينية وأخلاقية ، فقد أزعجهم انتشار المراكز الإسلامية فى المدن الأوربية الرئيسية ، يعبر عن هذا "جوتشالك" فى مقدمة كتابه ، فيقول : " انتشرت فعلا من هيئات التبشير فى دول أوربا : فى هامبورج ، وفرانكفورت ، ونورنبيرج ، ولندن ، وزيوريخ ، وحتى فى بودابست . وقد تبلور نشاطها فى تمويل بناء

مساجد على أحدث طراز ، وإنشاء مراكز صحفية وثقافية .. كما تم تعيين ملحق دينى فى كل سفارات مصر فى إفريقيا . وينبغى ألا يقتصر نشاطهم على عملهم الرسمى ، وهو الاستشارات الدينية فى السفارة ، بل هم مكلفون أيضاً بنشر الإسلام فى إفريقيا ..كذلك محطة إذاعة القرآن الكريم ، التى أنشئت فى القاهرة لتذيع البرامج الدينية والسياسية فى آسيا وإفريقيا السوداء ." [39]

لابد لنا هنا من وقفة قصيرة ، لنجلو حقيقة الظاهرة التى تغيب عن كثيرين ، ألا وهى أن بعض المسلمين المهتمين بالدعوة الإسلامية – وكذلك بعض الحكومات التى تفتقر إلى تأييد الجماهير – يعلنون دائماً عما يدور فى ذهنهم من مشروعات لنشر الدعوة ، سواء على الصعيد الداخلى أو الخارجى ، وغالباً ما تكون هذه المشروعات أفكاراً فقط – أو دعاية لغرض ما – لم تخرج إل حيز التنفيذ ، وقد لا تخرج إطلاقاً ، كما حدث فى تعيين ملحق دينى فى السفارات المصرية فى إفريقيا ، لكن الغرب يرصد كل همسة فى العالم الإسلامى ، فإذا سمع بمثل هذه الأنباء ، سارع إلى تجنيد الخبراء والباحثين لدراستها من كل الجوانب ، والعمل على وأدها ، ومن أساليب الوأد : إبعاد الشخص المتحمس لها عن موقع اتخاذ القرار – إن كانت هناك جدية فى تنفيذها ، وأقرب مثال على ذلك ما حدث فى أوربا ، عندما ناقشت لجان مجلس الشعب المصرى مسألة تطبيق الشريعة الإسلامية فى أواخر السبعينات من هذا القرن (القرن العشرين) ، فقد كتبت الصحف تنذر وتحذر ، وجاء العديد من المندوبين يستفسرون ويستطلعون ، وقابل الباحثون – الذين أرسلوا خصيصاً لهذه المهمة – كثيراً من علماء الدين ، وناقشوهم فى مدى إمكانية – وجدية – تطبيق الشريعة فى العصر الحاضر .

أما ما يتعلق بالمراكز الإسلامية – المنتشرة فى العالم – فكثير منها لا يمثل وجهة النظر الإسلامية ، لأنها تابعة للمذهب القاديانى ، وهو مذهب منشق عن الإسلام ، فهى لا تنشر

---

[39]) الإسلام فى الفكر الأوربى صـ 9

المبادئ الإسلامية صحيحة ، بل ممزوجة بتعاليم مسيحية ، ومع ذلك يتزعج الغرب منها ، ويعدها هجوماً عليه فى عقر داره . ولو اطلع هؤلاء المتزعجون على خلفيات إنشاء هذه المراكز ، لظهر لهم أنها أقيمت بمساعدة الحكومات الاستعمارية ، لتشوه مبادئ الإسلام الصافية للمواطن الأوربى ، حتى تقيم الحواجز بينه وبين اعتناقه الإسلام .

أما المراكز غير القاديانية — سواء كانت تخضع رسمياً للحكومات الإسلامية ، أو كانت تمول فقط من أموال المسلمين — فهى قليلة بالنسبة للمراكز القاديانية . أضف إلى ذلك أنها لا تقوم بواجبها كما ينبغى ، إذ تتحكم فى تعيين القائمين على المراكز الحكومية أغراض شتى ، ليس منها الحرص على نشر الإسلام فى بلاد غير إسلامية ، كما تخضع المراكز غير الحكومية لأهواء متعددة ، ولذا فالخلاف بينها قائم ، والنزاع مستمر ، والمصادمات تتعدى حدود المهاترات الكلامية .

أما إذاعة القرآن الكريم ، وإن قامت بجهود لا بأس بها ، فهى لم تبلغ بعد المستوى الذى ينبغى أن تصل إليه إذاعة تتحدث باسم الإسلام وسط تيارات تتحدى ، وتهاجم ، وتنقض على الإسلام ، أينما ، وحيثما وجد صوت يقول : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله .

ورغم هذه الصورة الباهتة للإعلام الإسلامى ، فإن الغرب يتزعج عندما تحمل موجات الأثير إلى أذنه كلاماً عن الإسلام ، لأنه يعرف قوته ، ويدرك إمكاناته الخلاقة ، إذا ما حمله رجال مخلصون ، يؤدون دور أسلافهم بأمانة وإخلاص ، وقد عبر عن هذا " باول شمتز " بقوله : " سيعيد التاريخ نفسه ، مبتدئاً من الشرق ، عوداً على بدء ، من المنطقة التى قامت فيها القوة العالمية الإسلامية فى الصدر الأول للإسلام ، وستظهر هذه القوة وجودها ، **إذا ما أدرك المسلمون كيفية استخراجها والاستفادة منها** ، وستنقلب موازين القوى ، لأنها قائمة على أسس لا تتوافر فى غيرها من تيارات القوى العالمية .

أدرك المفكر البريطانى " جورج برناردشو " مدى فاعلية هذه القوة — معارضاً بذلك كثيراً من الأحكام السطحية عليها — حين كتب :

" لا يساورنى أدنى شك فى أن الحضارة التى ترتبط أجزاؤها برباط متين ، وتتماسك أطرافها تماسكاً قوياً ، وتحمل فى طياتها عقيدة مثل الإسلام ، لا ينتظرها مستقبل باهر فحسب ، بل ستكون خطراً على أعدائه . من الممكن أن يعارض المرء هذا الرأى بأن الإسلام فقد السيطرة على بعض الأشياء المادية ، وخاصة ما يتعلق بالتقدم التكنولوجى الحديث .

لا أستطيع أن أدرك ، لماذا لم يعوض الشرق الإسلامى ما فاته فى هذا الميدان ، فلا تحتاج علوم الهندسة الحديثة إلى طبيعة عقلية خاصة ، بل يتطلب الإلمام بها والتفوق فيها إلى الخبرة وتوجيه الخبراء . ومن المؤكد أنه غالباً ما يحدث : أن تكون حضارة أخرى ، ذات منزلة عالية فى التقدم التكنولوجى ، أقل درجة من حضارة لم يبلغ بعد تطورها فى هذا المجال ما بلغته الأولى .

إذاً ، فهناك احتمال كبير أن يصبح شعب – ظهر حتى الآن أن مواهبه فى الناحية التكنولوجية ضعيفة – فى المستقبل سيداً على شعب آخر ، استولت التكنولوجيا على حواسه ومشاعره – فلم ينقذه أحد – وتحكمت فى سلوكه النظريات التى تسلب الإنسان الإحساس بالطبيعة .

لماذا لا يتعلم العالم الإسلامى ما تعلمناه فى مجال التكنولوجيا ؟ وفى مقابل هذا سوف يكون من الصعب علينا استعادة التعاليم الروحية ... التى فقدتها المسيحية ، بينما لم يزل الإسلام يحافظ عليها ." [40]

كانت هذه القوة هى إحدى الدوافع التى دفعت " جوتشالك " لكتابة مؤلفه : " الإسلام قوة عالمية متحركة " كى يبين لأبناء وطنه مراكز القوة فى الإسلام ، فهو يقول :

" لا ينبغى للمرء أن ينسى أن الإسلام استولى على تراث العصر الكلاسيكى ، فهضمه بأسرع ما يمكن ، ثم طوره ، ومزجه بتعاليمه الخاصة – بحيث لم يستحسنها المتدينون

---

[40]) الإسلام قوة فى العالمية صـ 333

فحسب ، بل يميل إليها كثير من العلمانيين – ، فصاغه فى صورة إسلامية بحتة ، بحيث أصبح تعبيراً عن ذاتية إسلامية ، لها صفة الدوام والاستمرار ، إذ لم تبل قوته الروحية ، ولا تأثيره الشامل على الغرائز الإنسانية ، ولا تصوفه المهيمن على أتباعه .. لم يبل كل هذا على مدى تاريخ تطور مجتمعاته ، كما هو الحال فى الأديان الأحرى ، بل احتفظت بفاعليتها دائماً ، حتى فى أثناء قرون الانتكاسة التاريخية لشعوبه ، بل زادت أخيراً فى فترة ضعف الناحية الروحية بين شعوب العالم الغربى . ولكى نبين مدى حتمية هذه القوة ، وترابطها جغرافياً وإنسانياً ، ينبغى أن نوضح كل خلفيات هذه العقيدة ... وبالإضافة إلى هذا نطرح على مائدة البحث التساؤل عن مركز القوة الشاملة فى الإسلام ، أو عن المبادئ التى يمكن أن تنقذ البشرية ، لأن معالجة هذا التساؤل سوف تبين عما إذا كان من الممكن – كما يدعى المسلمون – أن تنمو الناحية الروحية فى المجتمع بواسطة الالتزام بهذه العقيدة ، وتطبيق نظامها الاجتماعى ، وعما إذا كانت قوة الإسلام الإصلاحية لا تزال لها الأثر الفعال فى المجتمع المعاصر." [41]

الغرب مهدد بانهيار أخلاقى ، والإسلام يقف شامخاً بين هذه التيارات الهدامة ، له ماضٍ مشرق فى إنقاذ المجتمعات من الانحدار فى أودية الهلاك ، ومع ذلك يخشى الغرب أن تحل تعاليمه محل دين الكنيسة ، فتظهر المؤلفات تحمل طابع البحث العلمى المحايد ، وتستهدف وقف المد الإسلامى بين شعوبه ، فهى ذات وجهين :

أولهما : رغبة الكتاب فى شرح وتحليل مبادئ الإسلام ، دون التحامل عليه ، وهى ظاهرة لم تكن موجودة فى العصور السابقة ، غير أن ثقافتهم وخلفيتهم الاجتماعية تقودهم إلى عدم فهم بعض التعاليم الإسلامية ، أو معالجتها من وجهة النظر التى اكتسبوها من دراستهم ومجتمعهم ، فيهووا إلى ساحة ينسون

---

[41] الإسلام فى الفكر الأوربى صـ 9-10

فيها ما لقنته إياهم النهضة الحديثة من الالتزام بالحياد فى البحث ، والتحرر من العواطف والانفعالات فى الحكم على الأشياء .

ثانياً : محاولة إظهار أن بعض تعاليم الإسلام تتعارض مع متطلبات العصر الحديث ، ولذا فهى لا تصلح كلها للتطبيق فى المجتمع المعاصر .

إن من المستحيل أن يستطيع الأوربى خلع رداء نسجته عصور طويلة من الحقد والكراهية والكيد للإسلام ، ومن يطلب ذلك ، فهو غير مدرك لطبيعة الإنسان والظروف التى كونته ثقافياً وأخلاقياً ، ولذا فإذا وجد كاتب يعترف للإسلام بجانب إيجابى فى المجتمع ، فعمله خطوة أولى على الطريق لمعرفة الإسلام ، دفعته إليها ظروف ، اختلفت عن الظروف التى عاشها أسلافه ، وعلى المسلمين إزاء هذه الظاهرة مراعاة الحقائق التالية :

1. لا ينبغى أن ينخدع المسلمون ، إذا ما قرءوا جملة إنصاف من كاتب ، فيعدوه — بناءً على هذه الجملة — من المشيدين بالإسلام ، والمنصفين له ، لأن ذلك يضر بالدعوة الإسلامية ، حيث تؤثر أفكاره السلبية — وما أكثرها — على من يقرءون له بعد سماعهم الحكم عليه بأنه من المنصفين للإسلام .
2. لا يوجد كاتب أوربى وضحت عنده الصورة الكلية للإسلام (باستثناء عدد قليل جداً منهم : " جوستاف لوبون ، ومحمد أسد ، الذى اعتنق الإسلام) ، وإنما هى ومضات أضاءت لهم بعض جوانب الطريق . وعلى المسلمين — إن هم أرادوا خدمة الإسلام — أن يساعدوا أمثال هؤلاء على كشف ما حجب عنهم — بفعل الصراع الدينى الذى استمر قروناً طويلة — ، فإن تقاعس الدعاة عن هذه المهمة ، فلا ينبغى أن يُنتَظَر من كاتب أوربى محاط بالظروف المناوئة للإسلام أن يلتزم بالخط ، من أوله إلى آخره .
3. ظهرت مؤلفات كثيرة عن الإسلام فى القرن العشرين ، تَعَرَّض الكُتَّاب فيها لعناصر القوة فى الإسلام ، سواء من الناحية : الاستراتيجية (جغرافية ،

ومادية ، وبشرية) أو من الناحية الروحية . وواجبنا بيان هذه النواحى لشبابنا ، حتى نخلصه من عقدة الشعور بالضعف ، ونحذره من الاعتقاد الخاطئ بأن سبب ضعفه راجع إلى انتمائه للإسلام ، كما نحاول الاستفادة من هذه العناصر لنبنى قوة عالمية إسلامية ، تقف على قدم المساواة مع القوى الأخرى .

4. كما ظهرت مؤلفات أخرى تناولت حياة النبى ﷺ بالشرح والتحليل ، وتعرضت للقرآن الكريم فى أحكامه وتعاليمه بالبيان والإيضاح . وسواء كان الغرض من نشر هذه الكتب تعريف الشعوب الأوربية بهذا الدين ، الذى يزداد تأثير أتباعه فى مجال السياسة الدولية يوماً بعد يوم ، أو تحذيرهم من سيطرة المسلمين على مصادر الطاقة ، فإن على المسلمين تحليل هذه الكتب ، وتمييز الأفكار الطيبة فيها للثناء على موقف صاحبها فى هذا المجال ، من الأفكار الخبيثة للرد عليها وتصحيحها ، لعل كاتبها يرجع عن رأيه ، وإلا فلا أقل من توضيح رأى الإسلام فيها .

5. لا ينتظر أن تتحول أوربا إلى الإسلام - رغم ما يقال وينشر عن إسلام واحد هنا وآخر هناك ، ورغم ما ينشره السذج من أن أوربا تبحث عن الروحانية التى فقدتها ، ولن تجدها إلا فى الإسلام ، وسوف نصحو يوماً (هكذا يحلمون) فنجدها مسلمة من أدناها إلى أقصاها — إلا إذا تهيأت الظروف لذلك ، وليس هذا سهلاً ، فهو يتطلب :

- بناء قوة إسلامية عالمية (اقتصادية ، وسياسية ، وعسكرية) بحيث تكون غير خاضعة لقوى أخرى ، ومؤثرة فى اتخاذ القرارات الدولية .
- نهوضاً بمستوى الفرد فى المجتمعات الإسلامية ، بحيث يفوق مستوى الفرد الأوربى .

- دعماً مادياً غير محدود للمراكز الثقافية فى البلاد الأوربية ، وإسناد قيادتها للقادرين على القيام بمهام الدعوة ، لا لمن يسعى لمغنم مادي .

يجب على المسلمين مراعاة هذه الحقائق فى مجال عرض الإسلام فى المجتمعات الأوربية عرضاً سليماً ، قولاً وعملاً ، كما ينبغى عليهم أن يستخدموا وسائل الإعلام الحديثة فى بيان أن الإسلام دين المحبة والسلام ، وعقيدة تُحَمِّل أتباعها مسئولية الدفاع عن المبادئ الإنسانية ، وحقوق الإنسان ، والحرص على العدل والحرية والمساواة ، وحرية الفكر فى جميع مجالات الحياة : سياسية ، واقتصادية ، واجتماعية ، وثقافية ..حتى فى الفكر الدينى .

ولا يقتصر نشاطهم على الكلام فقط ، بل يجب أن يكونوا نموذجاً متحركاً ، يرى العالم فيه كل هذه المبادئ بصورة حية ، تتفاعل مع روح العصر ، وتؤثر فى مسيرة النهضة الإنسانية .

obeikandl.com